مدن العراق القديمة

Les vieilles Cités de l'Irâq.

(القني القديمة) — تابع —

وتطلع النظرة الى صحيفة التاريخ على المرار العديدة التي تحولت امرة سهل شنعار فيها من دويلة الى اخرى ، حتى انه كانت السلطة ترجع الى بعض الدول على اختلاف العصور وبين سنين كثيرة .

ويمكن تتبع مجرى القني القديمة الى هذا اليوم لانها تظهر على شكل صفي رواب . وترى احياناً ثلاثة صفوف أو اربعة متوازية — وهذا الامر يشوش الانسان في بادئ الامر — . ولكنها تكسح القناة من الطمي يصبح جنباها مرتفعين جداً فيتطلب تنظيفهما عملاً اعظم ويرجع عندئذ حفر عقيق جديد بجانب العقيق القديم .

واهم القني القديمة نهر ملكا (النهر الملكي) وشط نيل وشط الحي . وكانت تجري القناة الاولى من الفرات في ضواحي « سفر » وتمتد شرقاً الى دجلة . وكان شط النيل ينقل الماء من النهر (نهر الفرات) فوق بغداد بقليل وينعرج جنوباً شرقاً . وربما حفر شط النيل حين غير الفرات مجراه واتجه نحو الغرب بحيث اصبحت كيش ونفر ومدن اخر واقعة على عقيقه القديم لايسد الماء احتياج سكانها وحقولهم . وتسمى هذه القناة في جنوبي نفر بشط الكار . واما شط الحي — ولا يزال يستعمل حتى هذا الحين — فحفره « انتمنا » صاحب لجش ليجلب الماء من دجلة لان « اما » مدينة كانت تتصل دائماً بالقناة الجارية من الفرات .

بغداد ومتحفة الاثار القديمة

ان بغداد آخر قصبة من السلسلة الطويلة المقامة من العواصم القديمة التي اتخذت كل واحدة في حينها مقراً لمملكة ارض الرافدين . وبغداد حديثة العهد بعض الحداثة وان كان لها تاريخ جليل عريق في القدم . ولم يظهر اسم « بغدادو » إلّا مؤخراً في تاريخ بابل بالنسبة الى عهد هذه المملكة . ولا يظهر

في تلك المدينة من آثار الجاهلية سوى بعض كتل بناء مبنية بآجر عليه اسم نبوكدر اصر . وهذه الاخربة كل ما بقي من المسنيات التي شيدها ذلك الملك على ضفة النهر . وكانت بغداد في اوائل عصرها بلدة صغيرة واقعة على ضفة دجلة الغربية تعتمد على التجارة المنقولة على النهر ، ولا شأن لها في السياسة إلّا قليلا .

واخذت بغداد بالرقي بعد احتلال المسلمين تلك البلاد . لان المنصور ، ـ وكان رجلا فعالا وثاني خلفاء العباسيين ـ ، اتخذ هذا الموقع عاصمة جديدة له وعمر فيه الكرخ (المدينة المستديرة) الذائعة الصيت سنة ٧٦٢ م . ونمت هذه المدينة منذ ذلك الحين نمواً سريعاً حتى عظمت في ايام الخلفاء وتافست بمجدها ما سبقها من المدن امثال نينوى وبابل وسلوقية وطيسفون . واصبحت بغداد غنية جداً حتى صارت موئل التجار واقبل اليها الناس على اختلاف اجناسهم من اربعة اطراف الارض ؛ وكان اسمها دار الخلافة الزاهية ، دار هرون الرشيد ، اعظم خلفاء العباسيين بعد سمعة ، جذبت الناس اليها من جميع انحاء العالم فاضحت كعبة الادباء ومحط رحال العلماء ومركز الشعراء ومحج رجال الفن .

ان الفضل في انشاء دار الآثار القديمة في بغداد عائد الى المرحومة المس جرترود بل العالية الهمة ، اذ كانت من احب الناس الآثار القديمة ، كما كانت من مصف العلماء المستشرقين . فصارت مديرة فخرية للآثار القديمة في الحكومة العراقية ، فوق ما كانت تقوم به من واجبات الكتوم للشرقيات في ديوان المندوب السامي . وباشرت بنشاط عظيم اقامة متحفة للآثار القديمة ذلك النشاط الذي كانت تعرف به ، وهي لاتملك شيئاً لهذه الغاية إلّا بعض دريهمات وغرفة واحدة في دار الامارة (السراي) . وتتجاوز المتحفة الآن اتساع الغرفة الواحدة وقد نقلت الى محل اوسع في بناء مطبعة الحكومة في شارع الجسر ، ويعود فضل نموها الى ما تتبرع به بعثة كيش وبعثة اور في كل سنة ، وكانت المس بل اعانت هتين البعثتين اكبر اعانة ، ويتوقع ان هذه المتحفة تنقل بعد ذلك الى بناء خاص بها ، فتقر بها عيون الكثيرين لاسيما اذا رأوا في هذه الدار اسم المس بل تذكاراً لها ، ولو تسنى لتلك السيدة ان تشاهد هذه الذكرى لاستحسنتها خير استحسان مكافأة لعملها المفيد العجيب .

مواقع بابل القديمة

(وهي منظمة بحسب قربها من القطار العراقي واهميتها الى الناظر) .

من بغداد :

دور كوريجلزو (عقرقوف)

هي على مسافة نحو ساعة من بغداد في السيارة على طريق الكاظمية أو على طريق جسر الحر المؤدية الى الفلوجة . ويمكن لمن كان وقته ضيقاً زيارة المعظم والكاظمية وعقرقوف في رحلة يوم واحد .

توهم احد الرحالين وكان شاهد عقرقوف من دجلة في القرن السادس عشر انه برج بابل ، ويسميها عرب تلك الاصقاع الى هذا اليوم برج نمرود ، اما الحقيقة فان عقرقوف احدث بكثير من قصة نمرود . والكتلة البنائية العظيمة التي تشرف على امياك من تلك الاراضي هي بقايا زقورة الهيكل لمدينة كشية لدور كوريجلزو . وترى حوالي اساسات تلك الزقورة اخربة المسجد والمدينة . ولكن لم يحفر حوالي هذا الموضع حفر منظم ، ولا يعرف عنه شيء سوى انه كان آهلا الى زمن النصارى ، لانه عثر على عدد وافر من نقود الرومانيين في الروابي .

ومن الممتع أن يعرف الباحث ان تلك الزقورة بنيت كزقورة كيش وزقورة برس نمرود أي ان فيها منافذ مربعة معرضة لدخول الهواء . وتتخلل اللبن من حين الى آخر طبقات الحصر . (راجع ايضاً ما يخص كيش وبرسبا) .

طيسفون (طاق كسرى)

على مسافة ٢٠ ميلا من بغداد في السيارة على طريق الهنيدي

ومن ادهش ابنية العراق طاق كسرى العظيم (واصله ديوان كسرى) الواقع في طيسفون (سلمان پاك) ، ذيالك الطاق البالغ ارتفاعه الشامخ ١٢١ قدماً ونصفاً وعرضه الواسع ٨٢ قدماً . والزائر الذي يشاهد هذه الخربة واقيستها الجسيمة يكاد يصدق الخرافات العديدة السارية عن سابق عظمة هذا البناء وان لم يبق منه شيء إلّا نصف ديوان قصر الساسانيين الاوسط ووجه من اوجه اطراف ذلك القصر . ومن المأثور ان هناك جدراناً كانت مكسوة كلها بمعادن ثمينة وعمداً

لا تحصى من الفضة ؛ وقيل ايضاً ان قياصرة رومة نفسهم حسدوا ملابس الاكاسرة الفاخرة وحفلاتهم الملكية فقلدوهم .

واول مرة ظهر في التاريخ اسم طيسفون كانت في الحادثة التي اضحت ميداناً وكان يستحسن الفرثيون حط رحال معسكرهم فيها ، وتكاثرت شيئاً فشيئاً حتى صارت بلدة كبيرة تنافس سلوقية الواقعة على ثلاثة اميال منها في الضفة المقابلة من نهر دجلة . وسلب الرومانيون البلدتين واحرقوهما سنة ١٦٢ م ، فقضت هذه الضربة على سلوقية . ولكن الحظ خدم بعد ذلك طيسفون فاشتهرت . وبعد عدة تقلبات اتخذ سابور هذه المدينة وازاً لمملكته في الشتاء ، وكان سابور بن اردشير مؤسس دولة الفرس الساسانية سنة ٢٢٦ م . ودامت طيسفون اربعة قرون ونيفاً وريثة بابل كما انها كانت من اعظم بلدان الشرق .

وبلغت طيسفون اوج مجدها في زمن كسرى الثاني ، ولكن لما غلب الانبراطور هرقل كسرى المذكور في محاربة نينوى سنة ٦٢٧ م ، وقعت تلك المدينة في موقع حرج . وبعد مدة غير مديدة من الزمن نشأت قوة جديدة لم يشعر بها احد الى ذلك الحين ، هي ديانة الاسلام التي ابادت طيسفون وازالت ديانة زرادشت عن آخرها بهجومها عليها سنة ٦٤١ م .

سلوقية (سور)

لما توفي الاسكندر في بابل وسقطت المملكة المكدونية قام سلوقس اعز قواد الاسكندر ، واستولى على ارض الفرس وسورية والعراق (سنة ٣١٢ ق م) فشيد مدينة سلوقية على ضفة دجلة اليمنى ، على عشرين ميلا من بغداد الحديثة ، وكانت خطته ان يؤسس مستعمرات يونانية في آسية على اسلوب مدن اليونان . وعظم شأن سلوقية وبقيت مدة سيدة بلدان هذه الارجاء ، حتى احتلها الفرثيون سنة ١٤٠ ق . م . ولكنها لم تزل تتألق بمزايا مستعمرة يونانية ، بيد ان امرها ضعف رويداً رويداً حتى دانت لطيسفون التي اخذت بالرقي وطيسفون قائمة على ضفة النهر المقابلة لسلوقية . ولم يقم لسلوقية قائم بعد غزوة الرومانيين الفظيعة سنة ١٦٢ م حين نهبوها واحرقوها وذبحوا نحو نصف سكانها . ولم يبق من تلك المدينة الغنية العظيمة شيء سوى بعض الروابي الصغيرة

لا تجدي الزائر إلّا نفعاً قليلا .

اكد (تل الدير)

على نحو ١٦ ميلا من بغداد في السيارة . ويمكن مشاهدة « سفر » في الزيارة نفسها .

اثبت الاستاذ « لنغدن » ان اخربة تل الدير الواقعة على ضفة قناة اليوسفية الشمالية وفي جنوب غربي بغداد هي « اكد » المدينة المحصنة التي عمرها سرجون الاول حين ايد مملكة الساميين لاكد (سنة ٢٧٥٢ ق . م) . ويرى « السر ولس بج » الذي حفر في الدير سنة ١٨٩١ ، ان هذا الموضع بقايا مساكن في ضواحي « سفر » لا غيرها ، وقد كشفت اخربة « سفر » على اربعة اميال في جنوب غربي هذا الموقع . ولكن هناك امرين يؤيدان ان هذه البلدة رسمت وشيدت على خطة لتكون عاصمة وحصناً في وقت واحد ، لان جداريها المنيعين بنيا على شكل ضلعي مثلث ، وهناك قناة أو لعلها الفرات نفسه ، قام مقام الضلع الثالثة ، فضلا عن ان لهذه المدينة باباً واحداً واقعاً في الزاوية الغربية من الجدارين .

وانتشرت روايات كثيرة حول اصل سرجون الملك العسكري المقدام ، وكان رجلا وضيع النسب ، ولكن عظم قدره حتى ساد على غربي آسية الممتدة من الخليج الفارسي الى الجبال الشمالية ؛ ومن عيلام الى بحر الروم البعيد . ويقال انه كان ابن والدة حقيرة ، ومن والد مجهول ، فوضع في قفة صغيرة والقي في النهر مثل موسى . ولكنه حظي في عيني المعبودة اشتر فانقذته ليكون له حظ مجيد . وهناك اسطورة اخرى تبين انه كان في صباه بستانياً في مدينة كيش ، مدينة الشمريين ، وكانت حين ذاك سيدة بلدان سهل شنعار . وتكتنف حوادث ذلك العصر القصة الخيالية القائلة ان سرجون خدم خدمة ساق في دار « اور بابا » حفيد « كوج باو » الحمارة التي اغتصبت امرة شمر من اكشك .

ويظهر ان سرجون ساد قوماً جليلا سامي العنصر في كيش وفي اماكن اخر في سهل شنعار . ولا جرم انه يبعد علينا ان نعرف سبب عدم اتخاذ كيش قصبة لمملكته ، مع انه لقب نفسه ومن خلفه من ابنائه بلقب « ملك كيش » ويتضح انهم هجروا بالمرة تلك المدينة وهي موطنهم . وقد اختار سرجون إله كيش

للحرب إلهاً له كما انه اقام هيكلا عظيماً هو هيكل « إي المش » للمعبودة اشتر واضطر «نرأم سن» حفيد هذا الملك الى ان يحتل كيش مرة ثانية عنوة اذ يجوز ان الضغينة تمكنت من صدور الشمريين والساميين لما بينهما من الاختلاف القومي .

وكان « نرأم سن» فاتحاً قهاراً كجده كما كان بناء عظيماً . وقد جدد هيكل « إي ببر » من جملة الهياكل التي جددها ، و« إي ببر» هيكل إله الشمس المسمى « ببر » (شمش) في « سفر » ، ومر ذكر ذلك في تاريخ نبونيد ملك بابل العالم بالاثار القديمة (راجع هنا ما يخص بابل وسفر) .

وقلد الاكديون الشمريين في خطهم وتثقيفهم وظهر عدد كثير من الصفائح في روابي الدير .

سفر (ابو حبة)

على نحو عشرين ميلا من بغداد في السيارة

ومن المأثور في زمن الشمريين ان « سفر » احد البلدان الاربعة التي انشئت قبل الطوفان ، ولا ريب في ان « لسفر » تاريخاً قديماً جداً . كانت هذه المدينة واقعة على ضفة الفرات الشرقية قبل ان يبدل مجراه هذا النهر المتغير ، وكانت سفر مدينة ذات شأن في عهد شمر كله وكذلك في زمن بابل ولا سيما في اواخر عصر تلك المملكة ، على انها لم تتخذ مقراً للسلالة المتسيطرة .

ويمكن تقفي اثر جدار المدينة الى هذا اليوم ، وكان قائم الزوايا وفيه عدة ابواب ؛ وهو يمتد من الشمال الى الجنوب ، ويذكر في هذا الخصوص ان نبوكدنر اصر الثاني احكم حصن هذه المدينة وهي من مدن بابل الشمالية خشية من غزوات المانيين لانهم كانوا ذوي بأس يخشى (راجع مايخص بابل) .

ويمكن في هذا اليوم تعيين موضع الزقورة المتخربة ، المسماة النانارجا اي « دار مدخل السماء » . وكذلك دار السكنى الواقعة في شرقي منطقة الهيكل . وجدد «نرأم سن» رابع ملوك اكد هيكل « إي ببر » وهو اهم هياكل سفر المرصد لاله الشمس « ببر » (راجع مايخص اكد وبابل) .

وقد كشف عدد كثير من الصفائح في روابي « ابو حبة » ، ومن الذين

عثروا على هذه الصفائح هرمزد رسام الذي حفر هنالك سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٠ و ١٨٨٢ . والحفارون الاهلون والاب شيل الدمنكي مترجم شرائع حمرب . الذي قام بالحفر للمتحفة العثمانية الملكية سنة ١٨٩١ . وفي الحقيقة يقدره السر ولس بج» عدد الصفائح التي استخرجت من ذلك الموضع بـ ١٣٠,٠٠٠ ونقل عن الحفارين الاهلين ان مقداراً عظيماً منها كان في ضمن احباب (ازيار) كالاحباب المستعملة يومئذ للماء ثم عنونت بلباقة .

والمواقع الباقية التي تمكن زيارتها وانت تخرج من بغداد هي : الكاظمية والمعظم وقبر زبيدة .

من المسيب :

كوثى (تل ابراهيم) — (هي كوثى المذكورة في التوراة : سفر الملوك الثاني ١٧ : ٢٤ و ٣٠) على نحو ١٨ ميلا في السيارة اما من المسيب واما من كيش .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ان كوثى على ما نقل . قديمة جداً وكانت جليلة القدر في عصرها كله لانها كانت مركز تعليم الدين وكذلك كان شأن نفر واريدو . بيد ان كوثى لم تنل مجداً في السياسة . ونقل عبادة إله تلك البلدة الاله» نرجل» رب العالم الادنى الى « سامرية » وذلك على يد رجال كوثى الذين نفاهم سرجون ملك الاشوريين الى هناك . وكان مركز العبادة في كوثى في الهيكل المعروف باسم» إي مسلم» وزقورة إننر اي « دار الهلال » والذي يثبت ان لهذه العبادة شأناً خاصاً في تلك الاصقاع جميعها ، ماقام به الملك دنجي من تجديد الهيكل والزقورة ، وكان دنجي ثاني ملوك اور ومن سلالتها الثالثة .

من الحلة :

كيش (تل الاحيمر)

على مسافة ١٣ ميلا من الحلة في السيارة

ترى على مسافة تسعة اميال في شرقي بابل رابية كبيرة مخروطة الشكل ، يسميها العرب تل الاحيمر ، لان لونها يكاد يكون احمر . وقد حاول الرحالون

ان يطلعوا على حقيقة هذا التل منذ ازمنة كثيرة ، فثبت الآن ثبوتاً جازماً انه بقايا الزقورة « أنركدرمه » اي « دار العجب ، او المسكن الشهير » وهي الزقورة الراجعة الى هيكل « إلبابا » اله الحرب وزوجته اشتر في كيش .

باشرت بعثة « اجولد » (لاكسفورد) ومتحفة الميدان في شيكاغو كشف هذا الموقع الفسيح في آذار (مارس) سنة ١٩٢٣ ، فانعمت النظر بكل دقة في الزقورة والهيكل المسمى « إمت ارسج » القائم على جانبها . وبان تاريخ البناءين سريعاً ، ذلك التاريخ الطويل المتغير ؛ لان الملوك الاقدمين كانوا اذا جددوا ابنية مقدسة يذكرون من عادتهم اعمال تقواهم على آجر البناء ، ولا لوم عليهم بافتخارهم هذا . وعثر المستر « مكي » مدير البعثة « بعثة الميدان » على مثل هذا الرقيم المسماري الذي يبين ان « شمشويلونا » (٢٠٢٤ — ١٩٨٧ ق . م) سابع ملوك بابل ومن سلالتها الاولى ، رمم الهيكل والزقورة اللذين شيدهما سلفه « شمولا إلو » (٢١٥٦ — ٢١٢٢ ق . م) كما نعلم ان « لحمرب » ايضاً . وهو سلف « شمشويلونا » السابق له ، بدأ في تعظيم الهيكل المذكور . ولكن مسحاة المنقب تدفعه الى ان يمعن في التاريخ الى زمن اقدم من هذا الزمن ، اذ كشف جدار عظيم بعد عدة اقدام تحت ارض هيكل هؤلاء الملوك البابليين ، فيقتضي انه كان قسماً من هيكل شمري سبق عهد بابل بزمن مديد .

ويظهر ان في سائر تاريخ كيش المديد المتلون ، كان لعبادات هياكلها خشوع سرى الى مدن هذه الديار جميعها . وفي التاريخ ما يدل على ان هناك ملوكا من سلالة كيش وسلالة إسن ، وكان بعض ملوك اشورية نفسهم يقصدون الى مدينة كيش واختها « هرسجكالما » ويذبحون الذبائح في هياكلها . بيد انه يظهر ان الهياكل اضحت في ضيق شديد في ازمنة الحرب وحين غير النهر مجراه ، ولما وصلت بابل الى اوج مجدها في زمن نبوكدر اصر الثاني واصبحت في ابان عظمتها تجددت هياكل كيش « وهرسجكالما » مرة ثانية ، ومن ظريف المصادفة ان الرقيم المسماري المحفور في الآجر يثني على الملك لاعادة « إي سجيلا » هيكل الاله مردوك في بابل مناوئ اله كيش وهو احدث منه ولكن اتى هذا الاستهزاء من غير تعمد .